الباب الرابع

القـــــــانون

الفصل الأول

مكانة القانون فى التاريخ اليهودى

ربما كان من الأفضل ، قبل أن نمضى فى فحص بعض القوانين اليهودية الخاصة ، أن نلقى نظرة سريعة على مكانة القانون بوصفه كلا فى تاريخ بنى اسرائيل ، وذلك فى حدود ما أكده الدارسون المحدثون من خلال أبحاثهم النقدية .

وربما كانت أهم نتيجة توصل اليها النقد التاريخى واللغوى للعهد القديم ، بل وأكثرها صحة ، هى البرهنة على أن سن التشريع فى أسفار موسى الخمسة فى الصورة التى هى عليه الآن ، لا يمكن أن يكون موسى قد أعلنها فى الصحراء وفى موآب قبل أن يدخل الاسرائيليون فلسطين ؛ وأنها لم تتخذ صيغتها النهائية الا بعد استيلاء « بختنصر » على أورشليم عام ٥٨٦ ق.م ، عندما حمل اليهود معه الى المنفى . أى أن الجانب القانونى فى الأسفار الخمسة ، باختصار ، لا يرجع تأليفه فى الصورة التى هو عليها الآن ، الى عصر مبكر فى تاريخ بنى اسرائيل ، وانما يرجع الى عصر متأخر . فهذا التشريع بصرف النظر عن أنه لم يعلن قبل أن تستولى الأمة اليهودية على أرض الميعاد ، كتب ونشر القليل منه فيما يبدو ، قرب نهاية استقلال هذه الأمة ، كما ألف الجزء الذى اصطلح النقاد على تسميته بالتشريع الكهنوتى لأول مرة فى الصورة التى هى عليه الآن ، إما فى فترة السبى البابلى أو بعده .

على أننا نرى أنه من الضرورى أن نميز بين عصر القوانين فى حد ذاتها ، والتواريخ التى خرجت فيها الى العالم فى شكل شريعة

مكتوبة • وقليل من التفكير كفيل بأن يقنعنا أن القوانين بصفة عامة لا تخرج إلى الوجود كاملة فى اللحظة التى تصاغ فيها ، كما خرجت أثينا من رأس زيوس • فالتشريع والتقنين شيئان مختلفان كل الاختلاف • أما التشريع فهو قانون ذو نفوذ لنظم سلوكية محددة لا تنتشر ولا تصبح ملزمة بوصفها قانونا قبل أن تعتمد السلطة العليا قرارها الملزم • بل ان القوانين الجديدة نادرا ما تكون ابتداعا جديدا كاملا ، بل لا يمكن أن تكون كذلك • وانما هى ترتكز دائما على وجه التقريب على أساس عادة قائمة ، بل وتقتضى وجودها ضمنا • كما أنها ترتكز على رأى شعبى يتلاءم فى كثير أو قليل مع القوانين الجديدة ، بحيث تكون العقول مهيأة فى هدوء لمدة طويلة لتقبلها • فلا يمكن لأكثر الحكام الدكتاتوريين استبدادا فى العالم أن يفرضوا على الشعب قانونا جديدا مطلقا يكون مخالفا بوجه عام لميولهم وتيار مزاجهم الطبيعى ، وثائرا على آرائهم وعاداتهم الموروثة ، ومستهزئا بأكثر ما يتعلقون به من مشاعر وآمال • بل انه كان دائما فى أكثر عصور التشريع ثوريه عنصرا محافظا يعمل على تقبل المجتمع لهذا التشريع وطاعته له • فالقانون الذى يستجيب الى حد ما مع ماضى الشعب ، هو وحده الذى يمتلك قوة من نوع ما للتكيف مع مستقبل هذا الشعب • أما أن يعاد بناء المجتمع من أساسه ، فهو مشروع وهمى • ويظل هذا المشروع غير ضار ، طالما كان محصورا فى نطاق أحلام الفلاسفة الطوباويين • ولكنه يكون خطيرا ، بل من المحتمل أن يكون هداما اذا خرج الى حيز التنفيذ سواء عن طريق الحكام الدكتاتوريين ، أو عن طريق الزعماء الذين يدلون على جهلهم منذ المحاولة الأولى بعناصر المشكلة الأساسية التى دفعوا بأنفسهم لحلها • فالمجتمع نمو وليس تكوينا ، وعلى الرغم من أنه من الممكن أن نحور هذا النمو وأن نشكله فى أشكال مختلفة ، تماما كما يستخرج البستانى بفنه أزهارا ذات شكل أكثر جمالا وأبهج لونا من الأزهار البسيطة التى تنمو فى الحقول وفى المروج وبين الأسوار الخضراء ، وعلى شاطىء النهر ؛ فانه فى وسعنا أن نشكل المجتمع من جديد فى حدود

ضيقة تماما ، كما يشـــكل البستانى زهرة الزنبق أو الوردة • ففى كل قانون كما هو الحال فى كل بنات ، عنصر قديم ، واذا استطعنا أن تقتفى أثر هذا العنصر حتى نصـــل الى منبعه الأصـــلى فان هـــذا سيقودنا الى الوراء ، الى أقدم مراحل الحياة الانسانية ، سواء كان هذا يختص بحالة بعينها أو بأصل الحياة فى العموم •

فاذا انتقلنا بعد ذلك من التشريع الى التقنين ، فإنه يتضح عند ذاك احتمال قدم القوانين المقننة كل الوضوح ، الى درجة أنه يبدو من نافلة القول أن نؤكد ذلك • واذا كانت أشهر المدونات القانونية فى العالم هى مدونة جستنيان التى عرفت باسم « ديجســـت » أو « باندیکتی » ، فهذه المدونة هى مجموعة اقتباسات من أعمال رجال القانون الرومانيين القدماء بنص أصحابها الذين ذكرت أسماؤهم بعد كل اقتباس على حده • ومعنى هذا أن المدونة الرومانية ليست مجموعة من القوانين الجديدة ، بل هى ببساطة تجميع جديد لقوانين قديمة كانت تعيش فى الامبراطورية لعدة قرون • أما أشهر القوانين الحديثة فهو القانون الفرنسى الذى أصدره نابليون • وعلى الرغم من أن هـــذا القانون قد حل محل المجموعة الهائلة من نظم التشريعات المنفصـــلة المحلية التى لوحظ أن المســـافر الفرنسى يغيرها كثيرا أكثر مما يغير أفراسه ، وعلى الرغم من أن هذا القانون كون ، بدون شـــك ، وحدة متكاملة من التشريع ، الا أنه على العكس يعد « وليد القانون الرومانى العرفى بالاضافة الى سنن الملوك وقوانين الثورة » • وحسبنا هـــذا المثال الذى يشير الى مجموعات القوانين الحديثة ، اذ أنه يعد من قبيل الاسهاب أن تقدم مزيدا من هذه الأمثلة •

ويبدو أن التشريع عند الأمم السامية كان يسير على هذا النحو • وأقدم قانون فى العالم وصلنا عن العصور القديمة هو قانون حمورابى، ملك بابل الذى حكم حوالى سنة ٢١٠٠ ق • م • على أنه ليس هناك ما يجعلنا نفترض أن التشريعات التى يتضمنها هذا القانون تعد خلقا جديدا كل الجدة للمشرع الملكى ، بل ان الاحتمال والشـــاهد كذلك

يؤيدان على العكس وجهة نظر أن الملك البابلى لم ينشىء بنية قوانينه الا على أساس من التقاليد والعادات البالغة فى القدم التى ورثها قومه عن الساميين القدماء الذين كانوا يعيشون فى بابل من قبل ، وهم السوماريون ، أو هو على الأقل اعتمد فى تأليفها على جزء من هذه العادات والتقاليد • وقد كان هذا الشعب السامى متعصبا لتلك العادات والتقاليد وكان يعدها مقدسة كما قدسها الملوك وأجازها القضاة • وبالمثل فان النقاد الذين يرجعون مجموعة التشريعات التى تسمى بشريعة موسى ، الى العصور السابقة مباشرة على فقدان الأمة اليهودية استقلالها ، أو التالية لذلك بزمن ليس بالطويل ، يدركون تماما أن هذه الشريعة حتى فى صيغتها النهائية لم تسجل التقاليد والعادات الشعائرية فحسب ، بل انها أكدتها ، وهى تلك العادات والتقاليد التى يعد كثير منها ، بل أكثرها أهمية ، أقدم بدون شك من العصر الذى اتخذت فيه أسفار موسى الخمس شكلها النهائى ، أى فى القرن الخامس قبل الميلاد • ومما يؤكد ببساطة هذه النتيجة التى تقرر القدم البالغ لعادات بنى اسرائيل الشعائرية الرئيسية مقارنة هذه العادات بعادات غيرهم من الشعوب • فمن شأن هذه المقارنة أن تكشف أن ما تتضمنه العادات العبرية من آثار بدائية ، بل همجية ، ليس بالقليل • ولا يمكن أن تكون هذه الآثار قد انطبعت فى الشريعة الموسويه عندما ظهرت فى صيغتها القانونية لأول مرة ، بل لا بد أنها ارتبطت بها منذ عصور قديمة ، ربما ترجع الى فجر تاريخ الجنس البشرى • وسوف نشير الى بعض هذه الآثار فى خاتمة بحثنا • ومن الممكن للباحث بطبيعة الحال أن يضاعف هذه الآثار التى سوف نعددها ، فعادة الختان وعادة اقامة بعض الشعائر التى تختص بالاعتقاد فى نجاسة المرأة وكذلك عادة استخدام كبش الفداء ، كل هذه العادات لها ما ينظرها فى عادات القبائل البدائية التى ما تزال تعيش فى كثير من بقاع العالم •

وما ذكرته يعد كافيا لازالة الخطأ فيما يدعيه نقاد الكتاب المقدس ببساطة من وجود أصل متأخر لكل القوانين التى تتضمنها الشريعة

العبرية ، وذلك عندما أرجعوا الصيغة النهائية للقانون العبرى المقنن الى عصر متأخر • وربما كان الأفضل كذلك قبل أن نتعمق بحثنا حول الشريعة العبرية ، أن نصحح خطأ آخر من الممكن أن يبرز بين تلك الآراء النقدية • ذلك أنه لا يعنى بحال من الأحوال فقدان الدليل فى قليل أو كثير أن ما يسمى بالشريعة الموسوميه فى أسفار موسى الخمسة قد نشأت عن موسى ، ان واضع هذه الشريعة لم يكن سوى شخص أسطورى مصدره الخلق الشعبى والخيال الكهنوتى ، وأن هذه الشخصية قد اخترعت لتفسر أصل قوام الأمة اليهودية الدينى والدنيوى معا • فمثل هذا الاستدلال يخالف الحقيقة ، ومن شأنه أن يحدث نوعا من التحريف لا بالنسبة للدليل المدقق الذى ينصف حقيقة موسى التاريخية فحسب ، وانما بالنسبة لقوانين الاحتمال بوجه عام ، اذ نادرا ما تحدث الحركات الوطنية والدينية الكبيرة الا بدافع قوة عظماء الرجال ، أو أنها لا تحدث على الاطلاق الا بتأثيرهم • فالربط بين وجود بنى اسرائيل واليهودية وموسى ، يساوى تماما الربط بين أصل البوذية وبوذا ، كما أنه يساوى تماما الربط بين المسيحية والمسيح ، وبين الاسلام ومحمد • حقا ان هناك نزوعا فى بعض الاتجاهات فى عصرنا الحاضر لادعاء أن التاريخ قد صنعته دوافع جمعية عمياء لم تكن فى حاجة الى توجيه العقول غير العادية والهامها ؛ ولكن هذا الفرض الذى يترتب على الاعتقاد الخاطىء الضار فى المساواة الطبيعية بين الناس ؛ أو يدعم به ، يناقض ما تعلمناه من التاريخ بقدر ما يناقض التجارب الانسانية • فالجماعة الشعبية تحتاج الى قائد ، وبدون هذا القائد تنزع هذه الجماعة الى التخريب ، فى الوقت الذى لا تملك فيه سوى مقدرة ضئيلة على البناء ، وقد لا تمتلكها على الاطلاق • وبدون أفكار الرجال العظام وكلماتهم وأفعالهم وتأثيرهم فيمن حولهم ، ما كانت أمة عظيمة قد بنيت ، وما كان لأمة عظيمة أن تبنى • وقد كان موسى نموذجا للرجل العظيم ، وهو يعد بحق مؤسس أمة بنى اسرائيل • ولو أننا جردنا تاريخ حياته من الملامح المعجزة التى تتجمع دائما حول ذكرى الأبطال الشعبيين ، كما تتجمع الطحالب

والحشائش تجمعا طبيعيا حول الأحجار ، فاننا نجد أن ما روى عنه فى التاريخ العبرى المبكر صحيح فى أصله فيما يبدو • فقد تمكن موسى من استجماع قوى الاسرائيليين ضد المصريين الذين اضطهدوهم ، وقادهم الى القفار حيث حياة الحرية ، وبذلك صنع منهم أمة ، وطبع نظمهم الدينية والدنيوية بطابع من عبقريته البارزة ثم مات ، بعد أن قادهم الى مواآب وهو على مرأى من أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه •

ويميز النقاد فى مجموعة القوانين المعتقدة التى تكون الجزء الأكبر من أسفار موسى الخمسة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل • وهذه المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخها وطابعها • وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتاب العهد ، وقانون سفر التثنية وقانون السفر الكهنوتى • واذا ألقى القارىء نظرة سريعة على هذه المصادر فربما ساعده ذلك على تفهم مكانة كل مصدر منها فى تاريخ التشريع العبرى ، وذلك فى نطاق ما أكده النقاد من خلال فحصهم لها • وقد كثرت الآراء التى أثيرت حول النتائج ــ التى توصل اليها النقاد كما أنها تعد بالغة فى التعقيد بحيث يصعب علينا أن نسردها فى هذا المجال • ومن ثم فان القارىء الذى يرغب فى التعرف على هذه الآراء ، عليه أن يرجع الى الأعمال الكثيرة التى تتعلق بهذا الموضوع ، ويسهل عليه الحصول حيث يجد تلك الآراء مدونة تدوينا كاملا •

ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمسة بما يسمى كتاب العهد ، وهو الذى يتضمن سفر الخروج ، من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرون آية ٣٣ • وقد سمى هذا القانون بالتشريع الأول • وهو يتصل كل الاتصال بسفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون فى آية ١١ الى ٢٧ ، وهو ما يسمى فى بعض الأحيان بكتاب العهد الصغير • وقد أدمج كتاب العهد فى المصدر الألوهى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى شمال فلسطين فى مطلع

القرن الثامن الميلادى على الأكثر • أما كتاب العهد الصغير فيحتوى على المصـــدر اليهوى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى أرض الميعاد فى عصر مبكر عن كتـــابة المصدر الألوهى ، أى أنه كتب فى القـــرن التاسع قبل الميلاد • ولكن القوانين فى حد ذاتها كانت تعيش فيمـــا يبدو بوصفها قانونا أو مجموعة منفصلة قبل أن تتجمع فى هذه المصادر بزمن طويل • بل إنه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبـــل تقننها كانت تنتشر بوصفها نظما عادية • وربما كان يرجع الكثير منها الى عهد بالغ فى القدم • ويصور كتاب العهد فى العموم الحياة فى عهد الملوك والقضاة الأول • أما المجتمع الذى يصور فى هذا التشريع ، فهو مجتمع ذو بنية بسيطة ، فالحياة فيه تعتمد أساسا على الزراعة ، كمـــا أن مصدر الثروة فيه هى المنتجات الحيوانية والزراعية • أما أسس القانون المدنى والجنائى ، فهى تلك التى مازال عرب الصحراء يتبعونها حتى اليوم ، وهى تشتمل على قانون الأخذ بالثأر وقانون التعويض المـــالى • فالقانون يعاقب القاتل بالأخذ بالثأر منه • أما المتهم البرىء فيبحث عن ملجأ له فى معبد الرب • وتعد السرقة والاساءة للوالدين وممارسة السحر من بين الجرائم التى يعاقب عليها القانون • فاذا ارتكب الشخص اساءة من نوع آخر ، فإما أن يعين نفسه فيها أو يرفع شـــكواه الى المكان المقدس • فاذا أحس الشخص بظلم يقـــع عليه ، فانه يأخذ لنفسه بالثأر وفقا لهذا القانون • وهو نفس قانون « العين بالعين » الذى مازال سائدا بين العرب ، كما أنه كان القانون السائد بين الكنعانيين • فاذا شاء الشخص أن يثأر لنفسه وفقا لهذا القانون ، فانه يعتمد فى ذلك على نفسه •

أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقاد فى أســـفار موسى الخمسة فهى تلك التى يشتمل عليها سفر التثنية • ويحتـــوى هذا السفر على الجزء الأكبر من سفر تثنية الاشتراع فى الصـــورة التى عليها الآن ، فيما عدا المقدمة التاريخية والفصـــول الختامية • ويتفق النقاد المحدثون فى العموم ، فيما يبدو ، على أن سفر التثنية

هو « كتاب القانون » الذى عثر عليه فى معبد أورشليم عام ٦٢١ ق • م • ، وهو الكتاب الذى اتخذه الملك يوشيا أساسا لاصلاحه الدينى • وأهم الملامح الأساسية لهذا الاصلاح الدينى هو أولا ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها أو « الأماكن العالية » التى كانت تنتشر فى ربوع البلاد ، وثانيا تركيز عبادة « يهوه » الشعائرية فى معبد أورشليم وحده • وقد أكدت أسفار موسى الخمسة هذين الأساسيين تأكيدا قويا • ويبدو أن الملك المصلح قد استمد من تعاليم هذا السفر مبادئه التى وضعها موضع التنفيذ ، كما استلهم منه الهدف الدينى المفعم بالحماس الذى شد أزره وبعث فى نفسه الحيوية فى سبيل تحقيق هذا العمل المضنى • ومن السهل ارجاع تأثر الملك المصلح بتعاليم هذا السفر فى عمق الى تلك الوعود المباركة التى وعد بها كاتب السفر من يطيع القانون على سبيل الجزاء وتلك اللعنات التى توعد بها كل من يخالفه •

ومن ثم فان الاصلاح الذى أعلنه « يوشيا » ، كان ذا أثر بالغ الغاية ، لا من ناحية المبادىء التى فرضها فحسب ولكن من ناحية كيفية نشر هذه المبادىء كذلك • فقد كانت هذه هى المرة الأولى فيما نعلم فى تاريخ بنى اسرائيل التى نشر فيها بنفوذ الحكومة ، قانون مكتوب بوصفه قانون الحياة الأسمى للأمة كلها • أما قبل ذلك فقد كان القانون عرفا وليس دستورا كما كان منتشرا فى معظمه بين الناس بوصفه مجرد عادات يستجيب اليها كل فرد بدافع قوتها وحسب اختلاف وجهات النظر الشعبية ، وبدافع قوة العادة التى يمكن الاهتداء فى تفسيرها من خلال التقاليد الموروثة إن لم يكن هذا التفسير قد ضاع فى ظلام العصور القديمة • حقا ان بعض هذه العادات قد دون فى شكل مجموعة من القوانين الموجزة التى يحتوى كتاب العهد على جزء منها على الأقل فيما نعلم • ولكنه لا يبدو أن هذه القوانين كانت تقدس تقديسا رسميا ، بل كانت مجرد كتب صغيرة توجد فى نطاق الملكية الخاصة • أما المصادر الحقيقية للقوانين فكانت تتمثل فيما يبدو ، فى هؤلاء الكهنة الذين كانوا يعيشون فى الأماكن المحلية المقدسة،

هؤلاء الذين نقلوا من جيل الى جيل تلك النظم الطقوسية والدينيه التى تكاد ترتبط بها القوانين الأخلاقية كل الارتباط فى المجتمع البدائى • فعندما كان الشك يساور الناس فى عادة من العادات ، أو عندما كانوا يتنازعون حول شيء قانونى ، كانوا يلتمسون مشورة الكهنة الذين كانوا يصورن أحكامهم فى كفاءة دون كفاءة القضاة العاديين ، وان كانوا ينطقون بها على لسان الرب الذى كانوا يستخيرونه ويفسرون ارادته بالقرعة أو عن طريق وسائل أخرى من وسائل النبوءة • وهذه القرارات الشفاهية التى كان يصدرها الكهنة كانت تمثل القانون • وقد كانت هى « التوراة » فى مغزاها الحقيقى سواء من الناحية النوجيهية أو التعليمية ، وذلك قبل أن تستخدم كلمة « التوراة » بمعناها الضيق لتدل فى بادىء الأمر على القانون بصفة عامة ، ثم على القانون المدون فى أسفار موسى الخمسة بصفة خاصة • على أن التوراة لم تكن فى مغزاها الأصلى ، توجيهيا كان أو تعليميا ، قاصرة على تعاليم الكهنة ، بل كانت تتضمن فضلا عن ذلك تلك التعاليم والتحذيرات التى نطق بها الأنبياء بدافع اعتقادهم هم وسامعيهم فى قدسيتها • ومن ثم فقد كانت هناك توراة تنسب للأنبياء ، وأخرى تنسب للكهنة وكلاهما اشتركا منذ بادىء الأمر ولعصور طويلة بعد ذلك ، فى كونهما تعاليم شفاهية غير مدونة •

ولا يعد ظهور مجموعة قوانين سفر التثنية فى صيغتها المكتوبة حلقة فى تاريخ الشعب العبرى فحسب ، ولكنه يعد حلقة فى تاريخ الانسانية جمعاء • ذلك أن هذه القوانين المكتوبة تعد الخطوة الأولى فى سبيل تدعيم الكتابة المقدسة ، وبالتالى كانت الخطوة الأولى فى احلال الكلمة المكتوبة ، بوصفها النظام الأعلى الثابت للسوك الانسانى ، محل الكلمة المنطوقة • وقد كان من جراء اتمام هذه العملية عن طريق أكمال الشريعة فى القرون التالية ، أن وضع الفكر الانسانى فى أغلال لم يستطع العالم الغربى أن يتخلص منها كلية منذ ذلك الحين • فقد كانت الكلمة المنطوقة من قبل حرة وبالتالى كان التفكير حرا ، حيث ان

الكلام لم يكن سوى أفكار فى شـــكل أصوات وحروف منطوقة • وكذلك كان الأنبياء يتمتعون بحرية كاملة فى الفكر والكـــلام لأن أفـــكارهم وكلماتهم كانت تستلهم من وحى الاله ، فيما كان يعتقده الناس • بل ان الكهنة كانوا أبعد ما يكونون التصاقا بالتراث • وعلى الرغم مـــن أن الرب لم يكن يتحدث بألسنتهم ، الا أنهم هيئوا لأنفسهم ، بـــدون شك ، مجالا واسعا فى تشغيل الجهـــاز النبوئى مســـتخدمين فى ذلك طريقة القرعة ، أو أية وسيلة أخرى يمكن أن يتعطف بها الرب ويوضح رغبته للمستعلمين المتلهفين • فلما خضعت النبوءات للكتابة أصبحت ثابتة ومعادة على نمط واحد ، أى أنها تحولت من مرحلة الانســـياب الى الجمود ، ثم الى مرحلة التبلور بكل ما يتميز به هذا التبلور من ثبات ودوام • ذلك أن الحرف الميت حل محل الكلمة النامية الحية ، كما أن الكتابة جردت النبى بل والكاهن من خصائصهما حيث أن وظائف الكهنة لم تكن قربانية بل نبوئية • ومن ثم فقد أصبح بنو اسرائيل هم « شعب الكتاب » • أما الحكم والمعارف فلم تعد تستمد من المـــلاحظة المستقلة ، ولا عن طريق التأمل الحر فى الانسان والطبيعة ، وانمـــا أصبحت تستمد من الشروح المضافة الى الوثيقة المدونة • ولمـــا أفسح المؤلف المجال للشارح ، كرست الموهبة الوطنية التى كانت سببا فى نشأة الكتاب المقدس ، جهودها ، فى كتابة التلمود •

واذا كان فى وسعنا أن نؤكد بثقة كبيرة ، التاريخ الذى نشرت فيه شريعة سفر التثنية ، فانه ليس فى وسعنا أن نحدد تاريخ تأليفها • وقد اكتشفت هذه الشريعة وذاعت فى السنة الثامنة عشرة من حـــكم يوشيا (٦٢١ ق • م) ، ولا بد أنها كانت قد كتبت اما فى الفتـــرة السابقة على حكمه ، أو أنها ألفت فى حكم خليفته « منسى » ، ذلك لأن الشواهد التى تتضمنها هذه الشريعة تؤكد أن تأليفها لا يمكن ان يكون أكثر قدما من هذا التاريخ ، وأنه من المؤكد أنها قد ألفت فى القرن السابع ق • م • وفى العموم فان أكثر الفـــروض احتمالا تشير الى أن سفر التثنية قد كتب فى عهد الملك « منسى » ، وأنه قد احتفظ

بها فى أمان بعيدا عن الأعين بأمر من هذا الملك الشرير ، حتى قدر لها أن تخرج الى الوجود فى أثناء عملية ترميم المعبد المقدس الذى قام به « يوشيا » الورع • حقا ان الشك قد ساور بعض الباحثين فى بعض الأحيان فى أن هذا السفر قد لفقه كهنة المعبدالذين سعوا فى احتيال بالغ فى خداع الملك الطيب فى أنه عمل بالغ فى القدم • ولكن هذا الشك ربما بدا اجحافه وعنفه لأى فرد ينظر بعين الحق الى الاستعداد البالغ الذى هيأه التشريع الجديد لاستقبال الحكام من خدمة الدين فى أورشليم الذين سحبت الدولة اعترافها بهم ، وحرمتهم الكنيسة من أوقافهم وأصبحوا لذلك مشردين بلا مأوى ، ولم يكن أمامهم سوى أن يرحلوا الى العاصمة لكى يعيشوا فى مستوى أقرانهم الحضريين ، ويتمتعوا بكل ما لمنصب الكهنة من تقدير مادى ومعنوى • ولن نكون مبالغين فى حكمنا على رجال الدين الذين كانوا فى أورشليم ، اذا افترضا أنهم تمسكوا بالنظام القديم ، وأنهم لم يبدوا استعدادهم لفتح اذرعهم وجعبتهم لاخوانهم المحتاجين الوافدين عليهن من البلاد الا تحت ضغط القانون الصارم •

ومهما يكن جهلنا بمؤلف سفر التثنية ، فليس هناك مجال للشك فى أنه كان مصلحا نزيها ، مدفوعا بدافع الحب الصادق لبلده ، ورغبة مخلصة فى الاصلاح الدينى والأخلاقى الخالص ، ذلك الاصلاح الذى كانت تتهدده الاعتقادات الخرافية والاسراف الشهوانى اللذين اتخذ الناس من الأماكن المقدسة المحلية مجالا لممارستها • وسواء كان هذا المؤلف كاهنا أم نبيا ، فانه من الصعب علينا أن نقرر ذلك ، لأن سفر التثنية يخلطبوضوح بين المسائل الكهنوتية أو الشرعية بوجه عام ، بروح النبوة • وربما بدا من قبيل التأكيد أنه كتبه بدافع التأثير الملهم بكبار أنبياء القرن الثامن وهم عاموس وهوشع وأشعياء • ولما كان المؤلف اصطنع وجهة نظرهم فى استعلاء القانون الأخلاقى فوق القانون الشعائرى ، فقد قدم نظاما للتشريع أقامه على مبادىء دينية وأخلاقية وعلى التقوى والانسانية وعلى الحب المتبادل بين الرب

وشعبه وبين الناس بعضهم بعضا • وقد كان من الطبيعى ، لكى يقنع سامعيه وقراءه بهذه المبادىء ، أن يستغرق فى الانفعال الجاد بل الدفاع الشجوى الذى هو أقرب الى حيوية الخطيب وحماسه منه الى هدوء رجل القانون وصرامته • فالتأثير الذى يتركه على القارىء الحديث ، هو تأثير الواعظ الذى ينساب فى مجرى الخطابة المتقدة أمام جمهور ساه يحتشد فى ممرات مدوية فى كنيسة واسعة الأرجاء • بل اننا نكاد نرى عينيه المضطرمتين وملامحه المتلهفة التى تلاحق نبرات صوته الجمهورى ، وهو يتردد تحت السقف المقبى ويدوى فى آذان المستمعين بانفعالات مختلفة تتراوح بين التأكيد المطمئن والأمل ، والحزن المؤثر والتوبة ، والفزع المسيطر واليأس • حتى اذا وصل الى النغمة العالية من التحذير المفزع والوعيد بغضب الرب البالغ ، وأتى الى الحديث عن الاثم والمعصية ، خفت صوته حتى يتلاشى نهائيا فى السكون • وليس فى العهد القديم منافس يقف مع هذه الخطيب على قدم المساواة ، كما لاحظ هذا بحق أحد النقاد المرموقين فى حسن ختام خطبته الذى عبر عنه بقوة انفعالية ثابتة •

وعلى الرغم من أن الاصلاح الذى كان يهدف اليه مؤلف سفر التثنية كان ينبع بدون شك من دوافع مخلصة وحماس بالغ فى تنفيذه ، فانه يحق لدارس فلسفة الأديان ، اذا ارتكز على وجهة نظر نظرية ، أن يعبر عن شكه فيما اذا كان تركيز العبادة فى مكان مقدس واحد كان يشير الى الرجعية لا التقدمية فى الدين • فاذا ارتكز فى شكه على وجهة نظر عملية ، فانه يحق له كذلك أن يعبر عن شكه فيما اذا كان هذا الاصلاح قد لازمه نوع من الاحساس بعدم الارتياح الذى اهتزت معه كفة مزاياه • ففكرة أن الرب لا يعبد عبادة حقيقية الا فى أورشليم ، تبدو من الناحية النظرية فكرة ساذجة ، بل هراء بالنسبة للعقول الحديثة التى ارتبطت بفكرة ان الله يعيش فى كل زمان ومكان ، ومن ثم يتسنى لعباده أن يعبدوه فى أى مكان وزمان • حقا ان الفكرة المجردة فى أن الرب موجود فى كل مكان من الأفضل أن يعبر عنها فى

عبادة الأماكن المقدسة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، أكثر من أن يعبر من خلال تقديسه فى مكان مقدس واحد يشيد فى العاصمة • وأما من الناحية العملية فان الدين القديم قبل فترة الاصـــلاح ، كان يتمتع بميزات واضحة تفوق ميزات الدين الجديد • فالرب فى ظل النظـــام القديم ، كان يسكن عند عتبة دار كل رجل ، اذا أمكننا أن نقول ذلك • ومن ثم فان العابد كان يلجأ اليه فى كل حالة يعانى فيها من شـــك أو متاعب أو أحزان أو آلام • اما فى ظل النظام الجديد فلم يكن يتيسر له هذا الأمر • فلكى يصل الفلاح الى معبد أورشليم ، كان يتحتم عليه فى كثير من الأحوال أن يتحمل مشقة السفر الطويل ، وهو نادرا ما كان يفعل هذا لانشغاله الدائم بعمله فى مزرعته الصغيرة • وليس عجيبا بعد ذلك أن يتنهد فى بعض الأحيان بعد أن فرض عليه النظام الجديد ، شوقا الى الناموس القديم • وليس غريبا أنه كان يعد تحطيم أماكنه المقدسة تدنيسا لها ، تماما كما قد يبدو للشعوب القديمة عندما كانت تحطم الأشجار العتيقة مثل أشجار الدردار والسدر « التى كانت تنام فى ظلها المقدس » • فاذا كان يمكن لنا أن نتصور مدى افتقاد شعبنا البسيط الساذج فى حزن لمرأى البرج الرمادى الذى ألفـــوا رؤيته ، أو مرأى ذلك الصرح الذى يبرز بين الأشجار أو يطل من فوق التل ، اذا ما اختفى أمامهم ، فاننا يمكننا كذلك أن نتصور كيف كان المزارعون العبريون يصغون دون جدوى ، لصـــوت أجـــراس يوم السبت ، وهى تدق عبر الحقول وتدعوهم لاقامة الصلاة فى بيت العبادة الذى كثيرا ما اجتمعوا فيه هم وأجدادهم لعبادة رب الجميع • انه يحق لنا أن نتصور أن المزارع العبرى لم يـــكن يختلف أســـاسا عن احساس مزارعينا ، عندما هب عليه الاصلاح الدينى كالاعصـــار ، مبتدئا من أطراف البلد • وربما كان قد أبصر بقلب مثقل محطمى التماثيل الدينية وهم يهوون بفؤوسهم عليها هدما وتخريبا • فهناك عند قمـــة التل وفى ظل شجرة البلوط ذات الأوراق ـــ الكثيفة المنتشرة ، كـــان يقدم هو وآباؤه من قبل ، العام تلو العام ، بشائر المحصول الناضج ،

وبشائر عناقيد العنب الأرجوانية • وكم رأى بعينه الدخان الأزرق المتصاعد من الضحية فى الهواء الساكن فوق الأشجار • وكم تصور أن الرب يسكن غير بعيد عنه ، ربما فى صدع سحابة بعيدة هناك تنفذ فيها أشعة الشمس فى بهاء يغلفه الضباب ؛ وربما كان موجودا هنا أو هناك على مقربة منه يستنشق رائحة الشواء الطيب ؛ فيباركه هو وثروته لأنه قدم له الضحية • أما بعد الاصلاح فقد أصبح يرى قمم التلال عارية ومنعزلة ، كما لم يعد يرى الأشجار القديمة التى طالما نشرت ظلالها فوق هذه التلال • وبالمثل لم يعد هناك أثر للعامود الرمادى القديم الذى طالما صب عليه قربان الزيت وأصبح مجرد قطع متناثرة من الأحجار • وهنا بدا له أن الرب قد هجره الى العاصمة ؛ ومن ثم فانه يتحتم عليه ان يرحل وراءه أينما وجده • وربما كانت الرحلة اليه طويلة ومضنية ، بحيث لم يكن يتسنى لرجل الأقاليم أن يتحملها الا فى ظروف نادرة • فقد كان يدلف فوق التل وفى الوادى الصغير حاملا معه قربانه حتى يصل الى أورشليم ، حيث يشق طريقه خلال شوارعها المزدحمة ويدفع بنفسه وسط ضجيجها المختلط • وهناك ينتظم مع كبشه فى صف طويل من المتعبدين الذين التهبت أقدامهم من السير وكسا تراب الرحلة ملابسهم ؛ بينما يأخذ الكاهن الجزار الذى شمر عن اكمامه فى ذبح الكباش الواقفة أمامه ، كل فى دوره • حتى اذا أتى دور ذبح كبشه ، فينساب دمه المتدفق الى بحر الدماء الذى يغطى فناء المكان المقدس • ومهما قيل له بأن هذا المكان المقدس أفضل من مكانه القديم ، ومهما تصور أن الرب نفسه يسكن فى هذه الأبنية الجليلة والأقنية الفسيحة لكى يشاهد هذه الدماء المتدفقة ؛ ولكى يستمع الى غناء كورس المعبد ، فان أفكاره كانت تعود به الى الوراء مصحوبة بما يشبه الحسرة على سكون قمم الجبال وظلال الأشجار العتيقة ، والمنظر الذى كان يشرف على الطبيعة الآمنة • ومع ذلك لابد أن يكون هؤلاء الكهنة أكثر منه حكمة ؛ ولابد أن يكون ما حدث قد تم بارادة الرب • هذه الأفكار الساذجة هى التى ربما كانت تساور رجل الضواحى البسيط عند حجته الأولى لأورشليم بعد

اتمام الاصلاح الدينى • وربما لم يكن بعض سكان الضواحى قد رأى بهاء المدينة الكبيرة وفسادها السياسى الا لأول مرة ، لأننا نفترض أن مزارعى أرض الميعاد كانوا ملازمين لريفهم فى هذه الأيام ملازمة المزارعين الانجليز للاحياء البعيدة عن العاصمة • بل ربما عاش الكثير منهم ومات ، دون أن يبعد مرة واحدة عدة أميال ، عن قريته الأصلية •

ولكن فترة الاصلاح التى عاشتها مملكة يهوذا لم تدم طويلا ، اذ لم يكد يمر جيل واحد بعد وضع يوشيا للاصلاح الدينى والأخلاقى ، حتى كانت الجيوش البابلية قد زحفت الى أورشليم واستولت على المدينة وحملت معها الملك وزهرات شبابه الى الأسر • وبهذا كانت الأسباب التى دعت الى الاصلاح هى بعينها التى قضت عليه فى مهده ، ذلك لأننا لا نشك فى أن الخوف المتزايد من الغزو الأجنبى ، كان هو أحد الحوافز التى أيقظت الضمير اليهودى وشدت سواعد خير رجالهم لكى ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، والا استولى البابليون على المملكة الجنوبية ، فتلاقى نفس المصير الذى لاقته المملكة الشمالية، عندما استولى عليها الأشوريون قبل ذلك بقرن من الزمان • ولكن السحب كانت قد أخذت فى الارتفاع تدريجيا من الشرق وغطت كل سماء أرض الميعاد • وكان الملك الورع ووزراؤه يعملون ، وشبح العاصفة يتهددهم ، ورعودها يطن فى آذانهم ، بقصد اتمام الاصلاح الدينى الذى كانوا يأملون به أن يبعدوا به شبح الكارثة التى تلوح أمامهم • ذلك أنهم كانوا قد عزوا هذا الخطر الوطنى الى آثام قومهم التى تمثلت فى الاعتقاد الأعمى فى القوى الخارقة ، ذلك الاعتقاد الذى كان سر قوة السلوك الاسرائيلى ، بل سر ضعفهم أمام العالم ، ومن ثم فقد تصور هؤلاء المصلحون أنه من الممكن وقف غزو الجيوش الفاتحة عن طريق القضاء على العبادة الوثنية وعن طريق انشاء نظام أفضل لشعائر العبادة • ويبدو أنهم لم يطرأ ببالهم قط ، عندما تهدد الخطر استقلالهم السياسى ، أن يعمدوا الى استخدام الأسلحة المادية التى يمكن أن يلجأ اليها بالفطرة فى مثل هذه الظروف الخطيرة،

من هم أقل منهم تدينا ؛ فبنـاء الحصون وتقوية أسوار أورشـليم ، وتمرين الرجال وتسليحهم ، والبحث عن عون أصدقائهم من الأجانب ، كل هذه الأمور التى تمليها الفطرة السليمة على العقل الوثنى ، لم تكن تبدو لليهودى ، سوى خيانة ليهوه الذى يستطيع وحده أن ينقذ شعبه من أعدائه • حقا لقد كان العبريون القدماء لا ينظرون الى مجريات الأمور الطبيعية فى حوادث التاريخ ، الا كما ينظر الى سقوط الأمطار وهبوب الرياح وتغيرات الفصول • وحسبه أن يتلمس فى هذه الحوادث بصمات الرب كما يتلمسها فى أحوال الطبيعة • وهذا القبول الهادىء لتفسير كل الأمور كليا من خلال وساطة القوى الخارقة ، كان عقبـة كئودا فى سبيل الوصول الى الاتفاق الهادىء فى حجرة المداولات فيما يتعلق بالأمور السياسية ، تماما كما يمكن أن يكون عقبة فى طـريق الفحص العلمى الهادىء للأحوال الطبيعية •

على أن ثقة اليهودى لم تهتز على الاطلاق فى التفسير الدينى للتاريخ ، عندما فشل يوشيا فى اصلاحه الدينى الذى كان يهدف من ورائه تجنب الكارثة الوطنية • بل ان ثقتهم فى أهمية الطقوس الدينية وفى الشعائر ، بوصفها الأساس الأول للرخاء الوطنى بصرف النظر عما اعترى هذه الثقة من ضعف نتيجة انهيار الاصلاح والمملكة معا ، قد أكدتها الكارثة فيما يتراءى لنا تماما • فبدلا من أن يثور الشـك فى نفوسهم ازاء هذه الحكمة المتقنة للمعايير الدينية التى كانوا قد تبنوها ، فقد انتهوا الى أن ما حـدث كان نتيجة عدم تنفيذهم تلك المعايير كما ينبغى • ومن ثم فانهم ما كادوا يستقرون فى أسرهم فى بابل ، حتى طالبوا أنفسهم بنظام أكثر دقة فى تأدية الشعائر الدينية التى كانوا يأملون عن طريقها أن يكتسبوا محبـة الرب ، فيخرجهم من منفاهم ويعيدهم الى أرضهم • وقد وضـع حزقيـال التخطيط الأول للنظام الجديد فى منفاه عند نهر خيبر • ولابد أن حزقيال الذى كان كاهنـا بقدر ما كان نبيا ، كان على علم بشعائر الأماكن المقدسة الأولى • ومما لاشك فيه كذلك أن النظام الذى اقترحه ليكون برنامجا مثاليا للاصلاح

الدينى فى المستقبل ، كان يرتكز على خبرته السابقة • ولهذا فقد كان هذا النظام يشتمل على ما هو جديد بقدر ما كان يشتمل على كثير من الشعائر القديمة ؛ فقد طالب بمزيد من الشعائر المقدسة البسيطة ، ومزيد من التضحية الخاشعة ، ومزيد من الفصل بين خدمة الدين وجمهور المؤمنين ؛ ومزيد من العزل التام بين المعبد وما يحيط به وبين اتصال الوثنيين به • وقد كان التعارض بين حزقيال الذى عاش بعد فترة السبى البابلى وبين الأنبياء الكبار الذين عاشوا قبل هذا السبى • شاذا ، بينما نجد السالفين قد ركزوا اهتمامهم حول تعليم الفضيلة الأخلاقية ، وراعوا الأفكار الطقوسية والشعائرية بوصفها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع الانسان أن يكسب بها رضا الرب ؛ نجد أن حزقيال قد عكس العلاقة بين هذين الأمرين ، فلم يكن لديه الكثير ليقوله عن المثل الأخلاقية ، بينما كان عنده الشىء الكثير ليقوله عن الشعائر • وقد طور المفكرون وكتاب المدرسة الكهنوتية البرنامج الذى نشره حزقيال فى السنوات الأولى من السبى واستمر تطوره حتى بعد النكسة بأكثر من قرن من الزمان ، عندما جعل منه عزرا فى أورشليم عام ٤٤٤ ق•م• النظام المتفتح للقانون اللاوى • والوثيقة التى تحتوى على ثمرة هذا العمل والفكر هى القانون الكهنوتى الذى يكون اطار أسفار موسى الخمسة • ومع ظهور هذا القانون تبدأ الفترة اليهودية ؛ كما تم عن طريقه تحول بنى اسرائيل من أمة الى مؤسسة دينية • وهذا القانون الكهنوتى الذى دون على الحجر المائل فى واجهة معبد أورشليم ؛ يكون الجزء الثالث والأخير من مجموعات القوانين التى ميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة • ومن أهم الآراء التى أعلنها النقاد المحدثون فيما يتعلق بالعهد القديم ، هو تأخر ظهور هذا القانون •